عالمية اللغة العربية

الدكتور أحمد مطلوب
عضو المجمع العلمي – بغداد

(1)

كثر الحديث عن اللغة العربية العالمية كثرة جعلت الناس في دوامة، واخافت من يؤمن بهويته ولغته وثقافته، بعد ان ذرت العولمة بقرنيها، واخذت تجتاح البلدان باسم التقدم العلمي وحرية الانسان0 ان اكثر اللغات استعمالا" في العصر الحديث : الصينية، والاسبانية، والانكليزية، والفرنسية، ولا تعد الصينية لغة عالمية وان تكلم بها اكثر من مليار ؛لانها لا تستعمل خارج بلاد الصين ، واما اللغات الثلاث الاخرى فهي مما أشاعه الاستعمار في الامريكيتيين ، واسترالية، ونيوزلندة، وفي بعض انحاء افريقية ، وآسية ، ولولا الاستعمار ما عرفتها هذه البلدان التي كانت مكتفية بلغاتها القومية والوطنية، ولا انتشرت هذا الانتشار الواسع، وفرضت على البلدان المحتلة، واصبحت لغات رسمية،أو لغات التعليم والمعاملات التجارية ، أو وجها" من وجوه الحضارة0

اما اللغة العربية فهل تعد عالمية؟ وكيف تكون عالمية في العصر الحديث؟

(2)

كانت العربية قوية حينما كان العرب أقوياء ، وكانت عالمية يوم كان العرب أحرارا" لهم دولة تمتد من الاندلس الى الصين، وكانت في هذه الاصقاع المترامية لغة تخاطب ودين وتعليم وتأليف في مختلف العلوم التي ذكر منها طاش كبري زادة في كتابه (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) ثلثمائة واثنين وعشرين علما، اقتضتها الحياة والتقدم العلمي الذي ازدهر في ظل الدولة العربية الاسلامية وكان من تلك العلوم – ولا غرابة ــ علما الرقص والغنج، وكان هذا دلالة على تفتح العرب واهتمامهم بكل ما يخص الانسان من علم وتلافيه وحياة رغيدة.

استطاعت العربية ان تعبّرعن تلك العلوم والفنون ، ولو كانت المستجدات اكثر لاستوعبتها لما فيها من طاقات تتمثل في وسائل تنميتها كالقياس، والاشتقاق ، والتوليد ، والنحت ، والتعريب.

لقد عرف العرب أهمية اللغة ، ولمحوا الصلة الوثيقة بينها وبين الحضارة فاهتموا بها لتكون وعاء للحضارة التي عاشوا في ظلها ، ولتكون خير وسيلة تعبر عن حضارتهم وملامح حياتهم، وقد بدأت تزدهر بعد نزول القرآن الكريم الذي احدث ثورة فكرية ، وهزة لغوية، اذ نقل الاسلام ألفاظا" من مواضع الى مواضع، واستحدث ألفاظا" لم تكن معروفة من قبل ببنيتها أو بمعناها الجديد، فنمت في ظله وازدهرت لتستوعب الجديد، ولم تعد لغة الشعر والخطابة فحسب وانما اصبحت لغة العلوم التي بدأت العناية بها في عهد بني أمية، وكان خالد بن يزيد بن معاوية قد اهتم بالعلوم الطبيعية، وأمر بنقل الكتب من اللسان اليوناني الى اللسان العربي، وكانت له كتب ورسائل، وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم، انه الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة، وأول من تُرجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء، ورأى ابن النديم من كتبه: كتاب الحرارت ، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعة.

استوعبت العربية هذه العلوم منذ عهد مبكر، وكانت وعاء للنهضة العلمية التي بدأت تطرق الحياة العربية، وللحضارة التي بدأت تورق وتزدهر وتقدم ثمرا" جنيا" في العصر العباسي الذي بدأت فيه حركة التدوين والتأليف والترجمة تنمو وتتسع ، وكان لظهور كتب الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة والفلسفة وعلم الكلام أثر كبير في نمو العربية واتساعها ، اذ أخذ المؤلفون والمترجمون

يضعون مصطلحات مستفيدين من قدراتها في الوضع ، وكان للمتكلمين – علماء الكلام فضل في نموها واستيعابها العلوم الجديدة ، قال أبو عثمان عمرو بن بحرالجاحظ في كتاب(الحيوان) : ((وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء، وهم اصطلحوا على ما لم يكن له من لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفا" لكل خلف ، وقدوة لكل تابع)) .
وأشار في كتاب (البيان والتبيين) الى وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي لأوزان الشعر ألقابا" لم تكن العرب تتعارف الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، وأشار الى وضع النحاة وأصحاب الحساب أسماء جعلوها علامات للتفاهم، وقال : ((وانما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني)) .
وأخذت العلوم تتسع، وبدأت الكتب تؤلف فيها أو تترجم اليها، وشهد العصر العباسي نهضة فكرية وعلمية واسعة المدى ، وكان لتشجيع أولى الأمر على التأليف والترجمة أثر في ذلك الازدهار، وكان لمرونة العربية دور كبير في استيعاب ألوان الثقافة ، والتعبير عن الحضارة التي ازدهرت ، وكانت حركة التأليف صدى لها اذ وضعت الكتب في العلوم المختلفة، وترجمت كتب الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات والفلك والكيمياء والصيدلة والموسيقى ، وغيرها من العلوم التي ذكرها الفارابي في (احصاء العلوم) ، وابن النديم في (الفهرست) واخوان الصفا في رسائلهم ، والخوارزمي في (مفاتيح العلوم) ، وطاش كبري زادة في (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) وكارل بروكلمان في (تأريخ الادب العربي) ، والدكتور فؤاد سزكين في (تأريخ التراث العربي) ومؤلفو كتب التراث العلمي عند العرب .

(3)

كانت العربية يوم ازدهار الحضارة العربية الاسلامية لغة عالمية ، ولم تتوقف عن النمو وانما سايرت المستجدات ، وحملت الحضارة الى العالم المعمور يومذاك ، وكان غير العرب يتعلمونها؛ لانها لغة الدولة والعلم والتأليف . وتتجلى عالميتها في ذلك العهد في :

اولا" : التاليف بالعربية ، اذ منذ أن شع نور الاسلام على العالم بدأ التأليف بها، وكان لها أثر كبير في قلوب المسلمين لانها لغة القرآن الكريم ، واعتزوا بها كل الاعتزاز ، وهذا أبو الريحان البيروني قد قال في مقدمة كتاب (الصيدنة) : ((والهجو بالعربية أحب اليَّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به ، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية ، والاسمار الليلية))
وقال جار الله الزمخشري في مقدمة كتاب (المفصل) : ((الله احمد على ان جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لي ان انفرد من صميم انصارهم وامتاز ، وانضوي الى لفيف الشعوبية وانحاز)) .
ومعنى هذا ان الاعتزاز بالعربية لم يكن مقصورا" على العرب وحدهم ، وانما كان المسلمون من غير العرب يعتزون بها ، ويفضلونها على لغاتهم ، ويؤلفون بها ، وينظمون الشعر بها ، وهو ما يتضح في التراث العربي والاسلامي الذي ظل شاهدا" على العناية بلغة القرآن الكريم حتى اليوم 0
وامتدت العناية بالعربية الى اوربة ، وكان للكتب العربية أثر في النهضة الاوربية ، اذ نشطت ترجمتها الى اللغات الاوربية منذ القرن الحادي عشر للميلاد ، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات العرب والمسلمين ، وانما نقلت كتب علماء اليونان التي ترجمتها العرب مثل كتب جالينوس ، وبقراط ، وافلاطون ، وارسطو ، واقليدس ، وارخميدس ، وبطليوس 0

وكان اهتمام أوربة بترجمة كتب العرب العلمية أكثر من اهتمامها بـغيرها ، ولذلك عُـــنيت بترجمة كتب الفلك والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلم الحيل (التقنيات) وأصبحت بـين أيدي الدارسين وطلبة الجامعت كتب : البتاني ، والخوارزمي ، والرازي ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، وابن النفيس ، والزهراوي ، فضلا" عن ترجمة بعض العلوم الانسانية مثل كـتب الفقه والتاريخ والمسالك والممالك، التي خدمت أوربة في تحقيق اهدافها التوسعية في القرنـــــين الماضيين 0

ثانيا" :الاستعانة بالمصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية اذ تأثر كثير من اللغـات الغربيـة والشرقية بالعربية ودخلت فيها الفاظ عربية ، ومن تلك اللغات الاسبانيـــــة ، والانكليزيـــــة ، والفرنسية ، والالمانية ، والمالطية ، والفارسية ، والتركية ، والاوردية ، واعترف المنصفون من الباحثين بهذا التأثير ، قالت الدكتورة زيغرد هونكه في كتاب (شمس العرب تسطع عـلى الغرب) : ((ان في لغتنا ـ تقصد الالمانية ـ كلمات عربية عديدة ،واننا لندين ـ والتاريـــخ شاهد على ذلك ـ في كثير من اسباب الحياة الحاضرة للعـــرب ، وكم اخذنا عنهم من حاجـات واشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة الى النفوس، والقـــت أضواء باهرة جميلة على عـــالمنا الرتيب الذي كان يوما من الايام قاتما كالحا باهتا، وزركـشته بالتوابل الطيبة النكهة ، وطيـبته بالعبير العابق، واحيانا باللون الساحر وزادته صحـــــة وجمالا" واناقة وروعة)) 0

ثالثا: اتخاذ مناهج علوم اللغة العربية في تأليف الكتب اللغوية ، ومـــــــن ذلك تأثر النـــحو العبري بالنحو العربي ، اذ ان النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون ، وانـــه كان الحافز لنحـاة العبرانية علـى تأليف كتبهم ، وان كتب اليهود النحوية الاولى كتبت بالعربيـــة واســـــتخدمت مصطلحات النحو العربي ، واتبعت النسق الذي كان النحاة العرب يتبعونه فـي كتبهم 0

وتأثرت علوم اللغة الفارسية بعلوم اللغة العربية ، ونحا المؤلفون بالفارسية منحى العـــرب ، ومن اوضح ذلك كتب البلاغة مثل (ترحمان البلاغة) لمحمد بن عمران الرادوياني ، و(حدائق السحر في دقائق الشعر) لرشيد الدين الوطواط0

رابعا":التأثر بايقاع الشعر العربي ، وقد اثبت الباحثون ان الشعر الاوربي والســـرياني والعبري تأثر بأوزان الشعر العربي وقوافيه ، يقول لوبون فـــي كتاب (حضارة العرب) : ((ان الاوربيين اقتبسوا فن القافية من العرب ، ودلت مباحث (فيادرو) وغيره من الكتاب الكثيرين علـى هذا الامر الذي كان الاسقف (هويه) بيّنه منذ زمن طويل)) ، ويقول ((ويعزى الشعر الاسبانـــي والشعر البروفنسي الى ما كان لشعراء الاندلس من تأثير)) 0 وذكرت الدكتورة زيغرد هونكـــه ان الشعراء الغنائيين عن الاوزان والقوافي العربية ، وعن كل طابع مميز للشعر الاندلسي0

ودرس الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف أثر أوزان الشعر العربي وقوافيه في الشـــــعر السرياني والعبري ، واوضح ذلك التأثير في كتابيه (القوافي والاصوات اللغوية) و (بدايـــات الشعرالعربي)

خامسا":اتخاذ بعض اللغات كالتركية القديمة ، والاوردية ، والفارســية ، وبعض اللغـات الافريقية الحرف العربي وسيلة للكتابة ، واتخذ الحرف العربي ـ فضلا" عن ذلك ـ زينة جمالية في المباني واللوحات الفنية 0

ان هذا التأثير وغيره ما كان ليتم لولا قدرة اللغة العربية على استيعاب المستجدات ، ومـــا فيها من جمال الايقاع ، وهذا من عالميتها التي اتسمت بسمات حددها الدكتور ابراهيم أنيس في كتاب (اللغة بين القومية والعالمية) بثلاث سمات :

الاولى : انها لا تخاطب الكبير بخطاب ، والصغير بخطاب آخر ، ولا تخلط بين ضمير المفرد وضمير الجمع ، فيقول ـ سبحانه وتعالى - : ((انا ربكم الاعلى)) ، ويقول الرسول محمد ـ صلـى الله عليه وسلم-: ((انما انا بشر مثلكم)) ، ويقول الناس : ((ما انت الا بشر مثلنا)) ، الى غير ذلك من اساليب اصيلة سوّت بين الناس في الخطاب والغيبة والتكلم 0

الثانية: سعة انتشارها ، واصطناع شعوب متعددة لها 0

الثالثة : ترحيبها بالالفاظ التي اقترضتها من اللغات الاخرى ، واستغلتهافي المصطلحات ولغة الكلام 0

وكان يوهان فك قد قال في كتاب (العربية) : ((ان العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي اساسا لهذه الحقيقة الثابتة، وهي انها قامت في جمتع البلدان العربية وما عداها من الاقاليم الداخلة في المحيط الاسلامي رمزا لغويا لوحدة العالم الاسلامي والثقافة والمدنية)) 0

(4)

هذا ما كان من عالمية اللغة العربية في القديم ، فما حالها في العصر الحديث ؟

عرف العرب اهمية لغتهم في بداية النهضة الحديثة ، واولوها عناية كبيرة ، ونشروا كثيرا من كتب التراث ليكون ردءً لهم يحمي ثقافتهم وحضارتهم وقيمهم التـي بدأت تتعرض للغزو الـــــــثقافي والاستلاب0 وكان من اعتزازهم بلغة القرآن الكريم تدريس العلوم بها ، وكانت مدرسة القـــــصر العيني بالقاهرة تدرّس الطب بالعربية ، ويضع اساتذتها الكتب بها ، ودرَست الجامعة الامريكية فـي بيروت ـ في اول نشأتها ـ الطب بالعربية ، ووضع اساتذتها الكتب النافعة ، وكانت تهتم بلغة المتاب العزيز ، وقد أنشأت (جمعية تنشيط اللغة العربية) للعناية بلغة الضاد ، واستقطاب الادباء من كـــل حدب وصوب ، كما كان يحدث في مطلع القرن العشرين ، وفي ديوان خليل مطران ما يلقي الضوء على هذه الجمعية النشطة حين ألقى سنة 1924 قصائد في الجامعة الامريكية بدعوة من هذه الجمعية التي كانت تنشط للعناية بالعربية ، هذا فضلا عما تقوم به من رعاية لاصحاب المواهب الفنية ، وقـد تخرج فيها حينذاك شعراء كبار مثل وجيه البارودي ، وحافظ جميل ، وابراهيم طوقان 0

ولكن مدرسة القصر العيني والجامعة الامريكية تنكرتا للعربية بـــعد ذلك وفرضتا لـــــغة المستعمر ، وسارت على نهجهما الجديد الجامعت العربية ، ما عدا القليل منها ، حيث تتعرض اللغة العربية لهجمات ضارية تحاول حرف هذه الجامعات عن نهجها الذي اختطته من ايمانها بالامـــــــة العربية ولغتها التي أثبتت قدرتها على تدريس العلوم بها ، وتفوق الدارسين بها على أقرانهم فـــــي البلدان الاجنبية عند اكمالهم الدراسات العليا او التخصصية 0

ان متابعة اللغة العربية منذ مطلع القرن العشرين تظهر قدرتها على استيعاب الجديد ، فـــبعد ان كانت لغة الصحافة ـ مثلا ـ محصورة بالالفاظ والاساليب القديمة اتسع نطاقها واصبحت قـــادرة على التعبير عن المستجدات ، ومثلها الاذاعتان المسموعة والمرئية ، واصبح لوسائل الاعـــلام دور فـــــي اشاعة العربية الفصيحة ، ونقل الوان الحضارة ، وصنوف العلوم بألفاظ صافية ، واســـلوب عربـــــي مبين 0 وما كان لها ان تقوم بذلك لولا مرونة العربية ، ولولا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليـــــه ، واخلصوا لامتهم وكتاب العربية الاكبر ؛ القرآن الكريم 0

وتتضح الصلة بين اللغة والحياة الجديدة في مجال التأليف والترجمة ـ ايضا ـ اذ صـــــدرت ملايين الكتب في الادآب والعلوم والفنون بلغة عربية سليمة ، ووضعت في كل علم وفن مئـــــــات الالاف من المصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية ، واصبح التأليف والترجمة ميسورين بعـــد ان كانا محصورين في مجال ضيق في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين 0

لقد تآزرت عدة جهات لجعل العربية قادرة على استيعاب الجديد ، ومن تلك الجهات :

اولا" : أساتذة اللغة العربية حيث عنوا بها وتابعوا سيرها ، ووضعوا الكتب في وسائل نموّهـــا ، وكان هذا اخلاصا" للغتهم وادراكا لارتباطها بالمجتمع الجديد الذي يحيون فيه ، كما أدرك العـــرب القدماء ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، فعنوا بها وسعوا الى تنميتها لتساير تقدو المجتمع وازدهـــــــار الحضارة في ظله 0

ثانيا: المجامع العلمية واللغوية التي كان لها دور كبير في تنمية العربية بما وضعت مـــــــن مصطلحات علمية والفاظ حضارية، وما الفت من معاجم ، ونشرت من بحوث ودراسات 0 وهـــذا عمل كبير له تأثير في واقع اللغة العربية المعاصرة ،وقد يكون له تأثير أعظم لو كان لجميع المجامع سلطة تنفيذ قراراتها وتوصياتها ، وما تتخذ من اعمال 0

ثالثا: وسائل الاعلام ، ولها دور في نهضة العربية على الرغم من دعوة بعضها الى تمزيـق شمل العرب ، وحرف لغتهم التي عاشت في ضميرهم الاف السنين 0

رابعا : الاستشراق ، اذ عكف المستشرقون على دراسة اللغة العربية وتحقيق التراث العربـي ، وكتابة البحوث التي نفعت اللغة ، وتأسيس المعاهد لتدريس العربية ، بغض النظر عمـــا وراء ذلك من اهداف 0

ان واقع العربية في هذه الايام يؤهلها لتكون عالمية كما كانت في عهد ازدهار الحضارة العربية الاسلامية على الرغم مما يحاك ضدها من دعاة العامية ، ودعاة الاخذ بلغة اجنبية 0

(5)

كانت العربية عالمية في القديم ، وهي الان ثالث لغة في العالم واحدى اللغات المعتمدة في منظـــمة هيئة الامم ، ولكن أيكفي ذلك ؟ وهل هناك من امل في ان تصبح عالمية ؟

قبل كل شيء لابد من تحديد معنى العالمية ؛ لان هناك اختلافا في وجهات النظر ، فمنهم مـــن يرى انها في كثرة المتحدثين بها ، ومنهم من يرى انها القادرة على استيعاب المستجدات، ومنهم من يـرى انها اللغة الاجنبية التي يعرفها ، ومنهم من يرى ان لغة المستعمرهي العالمية ، ومنهم من يـــرى ان لغته هي العالمية 0

ثم لابد من ان تسود العالم لغة واحدة كالانكليزية التي يسعى بعضهم الى ان تسود وتصـبح اللغة العالمية المنشودة ؟ يبدو ان هذا حلم الانكليز واتباعهم ، وكان م0م لويس قد سأل في كتابـــــه (اللغة والمجتمع) : ((ما الشكل الذي ستتخذه اللغة العالمية ؟)) وأجاب : ((يبدو اننا نســتطيع ان نسجّل احتمال ان تكون الانكليزية هي اللغة العالمية الاولى ، ويحتمل انه لا يوجد لغة يفهمها عدد من الناس اكبر من عدد من يفهمون الانجليزية)) 0 ودليله انها ((لغة اثنتين من الدول الاربع الكـبرى ، ويقف وراءها النفوذ الشاسع للفلم الامريكي والراديو البريطاني ، وهي في صورتها المعدلة لتصـــير ما يسمى انجليزية اساسية Basic English ، اصبحت لغة الكومونولث البريطاني للاتصـــــــال الخارجي والداخلي على السواء)) 0

وهذه الفكرة نابعة من العقلية الاستعمارية يوم كانت الشمس لا تغيب عن التاج البريطاني ، وقد يقول هذا القول الفرنسيون او الاسبان او الصينيون او الروس او اية دولة لها نفوذ وامتداد في الساحة الدولية 0

ان قدرة اية لغة على التعبير عن المستجدات هي اللغة التي يكون لها وجود على النطاق العالمي بغض النظر عن وجود لغات اخرى لها القدرة نفسها ، واللغة العربية التي يتحدث بها اكثر من ثلاثمائة مليون عربي وينتفع بها مليار مسلم ، وغير عربي او مسلم من المهتمين بالاستشراق واللغات الاجنبية لاغراض سياسية وعلمية ، فضلا عن قدرتها على النمو بالوسائل المعروفة لما فيها من حيوية واتساع ، كل هذا يضع لغة القران الكريم في مصاف اللغات العالمية التي لم تنتشر لولا الاستعمار وسيطرة المحتلين القدامى والجدد الذين اندفع بعضهم بالجيوش ، وبالعولمة والشركات المتعددة الجنسية ، والنزعة الانسانية ، والتحرير من الاغلال 0

ولكن الا يكفي واقع العربية لأن تظل كما هي ؟

ان اللغة لا تنمو وتزدهر ان لم يهتم بها اهلوها ، وقد اهتم العرب والمسلمون الاوائل بالعربية لانها لغة قوميتهم وعقيدتهم وثقافتهم ، وكانوا حريصين عليها كل الحرص ، معتزين بها كل الاعتزاز ، ولم يظهر خارجي يدعو الى التقليل من شأنها او الغائها واستعمال لغة اخرى الا بعد ان تفكك العالم الاسلامي وظهرت دول احيت لغاتها واتخذتها لغة قومية ، كما فعلت جمهوريات الاتحاد السوفيتي بعد انهيار الاتحاد ، حيث عادت كل جمهورية الى لغتها ، بعد ان كانت اللغة الروسية اللغة الرسمية في تلك البلاد 0

ان ما يواجه العربية اليوم ليس الاجانب وحدهم وانما الخوارج المنتسبون الى الوطن العربي، وكان القرن العشرون قد شهد دعوات الى تغيير قواعدها والحرف الذي يكتب بها ، او الاخذ بالعامية لغة تعليم وتأليف 0 وخلقت تلك الدعوات بلبلة في الاوساط الثقافية ، وخدع بها بعض الباحثين فدعوا الى ذلك متخذين الاسلوب العلمي ذريعة وسبيلا 0 ولا يدري العربي الغيور وهو يقرأ لهؤلاء أأريد بلغته خيرا ام اريد بها شرا" ؟

ان الذي يعوق جعل العربية عالمية بعض بنيها او المحسوبون عليها ممن لا يخدمونها كما يخدم الاجانب لغتهم ، ولا يصونونها كما يفعل غيرهم ، فضلا عن تنكر كثير من اولي الامر لها خلافا لما يفعله اولو الامر في الدول الاجنبية ، وما كان يفعله العرب القدماء ، من حرص على العربية واعتزاز بها وسعى الي تنميتها0 والتاريخ يتحدث عن جهودهم واهتمامهم بلغة القران الكريم ونشرها ، وكان الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان من اولئك الرجال حيث كان شديد الحرص على العربية وكان يصغي الى ما يبدعه الشعراء ، ويحث على اتقان العربية ، وقد ذكر الدكتور ابراهيم انيس في كتاب (اللغة بين القومية والعالمية) ان عبد الملك كان يقول عن ابنه الذي كان لحّانا: ((اضرّبالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية)) وكان يربط ولاية الحكم بالعربية وكان يقول لابنه الوليد : ((انه لا يلي امر العرب الا من يحسن كلامهم)) واين هذا من ولاة الامور في هذه الايام ؟

والعرب اذا ارادوا ان تتبوأ لغتهم مكانة بين لغات العالم ، عليهم ان يعنوا بها ، وان تكون تلك العناية هاجس ولاة الامور قبل كل شيء ثم تأتي وجوه العناية ومنها :

اولا" : الايمان بأن اللغة كيان الامة والوطن ومن ثم يأتي التخطيط العلمي الذي ينفذ على مراحل ، ويضاف اليه ما يستجد0 ولا يتم ذلك الا بأصدار قانون يحدد الاسس التي يقوم عليها الحفاظ على سلامة اللغة ، وتأسيس هيئة عليا تشرف على تنفيذ القانون ، وتضع الوسائل التي تنهض باللغة ، وتقترح القوانين الخاصة بها ، وهو ما معمول به في العراق اذ فيه ((الهيئة العليا للعناية باللغة العربية)) ، وما في الجزائر اذ فيها ((المجلس الاعلى للغة العربية)) ومهامه تشبه مهام هيئة العراق 0 ومثل هذا في فرنسة ((اللجنة العليا للغة الفرنسية)) فضلا عن الجمعيات التي تعنى

بسلامة اللغة ، وهذا من ايمانها بأن اللغة تحتاج الى من يتابع مسيرتها ، وكان خليل مطران قد قال في سنة 1923 ، والعرب في أوج حرصهم على لغتهم :

يُودي الفصيح من اللغات اذا غفا عنه الرقيب

ثانيا" : المجامع العلمية واللغوية اذ لها دور كبير في الاهتمام بالعربية ، وجعلها قادرة على استيعاب المستجدات 0 وقد عملت منذ نشأتها على وضع الدراسات والمصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية ، ولكن لم يُنتفع كثيرا" بما أنجزت ، لانها لا تملك سلطة تنفيذية كالمجمع العلمي في بغداد ، اذ نصت المادة التاسعة من قانون ((الحفاظ على سلامة اللغة العربية)) ذي الرقم (64) لسنة 1977 م على :

((يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية ، وعلى الاجهزة المعنية الرجوع اليه بشأنها))

ولا يقوم مجمع بغداد بهذا فحسب ، وانما يقوم بتنفيذ ما جاء في قانون ((الحفاظ على سلامة اللغة العربية)) ومنها منح الموافقة على تسمية الشركات والمحال التجارية بأسماء عربية قبل ان تمنحها الجهات المختصة الاجازات الرسمية ، فضلا عما يرد الى المجمع من استشارات لغوية ، وغير ذلك مما يهم لغة الضاد 0

هذه هي الخطوة العلمية في الاهتمام باللغة العربية وجعلها عالمية ؛ لانه لا ينجح أي عمل من غير تخطيط وتشريع لغوي ، واللغة ـ وان كانت ظاهرة اجتماعية ـ لا تترك للتيارات المتصارعة والاراء المتضاربة ، والنظريات البعيدة عنها ، على بنيها ان يتابعوا مسيرتها ، ويرصدوا الانحرافات التي يفضي اهماها الى مسخ اللغة ، وكان العرب الاوائل حريصين على لغتهم ، ولذلك الفوا الكتب في ضبط اصولها ، ووضعوا المعاجم لتحيد مبانيها ومعانيها ، واعادوا الى اللغة ما انحرف عنها بكتب التصحيح اللغوي ، ولذلك ظلت نقية الى حد كبير على الرغم مما مر به العرب من تقهقر وسبات قبل بدء نهضتهم الحديثة في مطلع القرن العشرين 0

ثالثا : الاهتمام بتدريس اللغة العربية في جميع المراحل الدراسية ، وجعلها مادة اساسية في مختلف الاختصاصات الجامعية ، ولا سيما في كليات التربية ، لان خريجيها يتولون التدريس في التعليم العام ، وفي كليات الحقوق (القانون)؛ لان خريجيها يتولون القضاء والمحاماة ، واتقانهم العربية واساليبها ودلالة الفاظها الدقيقة ييسّر فهم القوانين وتنفيذها بدقة وعدل وانصاف 0

ولا ينفذ هذا الا بقرار ملزم من الدولة ، وفي اقراره تعزيز لمكانتها واحترام لهويتها ، وتأكيد لاستقلالها 0 وليس صحيحا ما يقال من ان الدول قد تتحد ولغاتها مختلفة كما في الاتحاد الاوربي ، لان هذا الاتحاد لم يقم على اساس قومي او وطني وانما على اساس مصالح سياسية واقتصادية بحيث ظلت كل دولة محتفظة بهويتها ولغتها ، وقد ينهار الاتحاد بأسرع ما يتوقع حينما تتعارض المصالح بين دوله ، وهو ما حصل للاتحاد السوفيتي حيمنا انهار وعادت كل جمهورية من جمهورياته الى هويتها ولغتها 0 وهذا يؤكد ان كل امة لا تتخلى عن لغتها اذا امتلكت ارادتها ، وحققت سيادتها واستقلالتها 0

رابعا": تعريب التعليم في الجامعات ؛ لان التدريس باللغة الام يخدم العلمية التربوية ويحقق نتائج باهرة ، بخلاف التدريس بلغة اجنبية 0 وقد وقف التربويون عند هذه المسألة منذ عقود كثيرة ، واكدوا ان التعليم بغير لغة الام يعد ناقصا ، ومن ذلك التقرير الذي رفعه الدكتور فاضل الجمالي ــ مدير التدريس والتربية العام ــ الى وزير المعارف العراقية في الرابع من شهر آذار سنة 1938م ، اذ جاء فيه : ((ان عدم اتقا ن الطلاب اللغة الانكليزية يجعل دراستهم عقيمة ، لاسيما والكتب كلها انكليزية ، والمحاضرون معظمهم انكليز 0 وقد حدث ان رأيت احد الطلاب المتخرجين لم يستطع قراءة وفهم الكتاب الذي درسه في كلية الطب ، وفي هذا خطر على الارواح لا يمكن ان يقدر)) ،

وهدفه من هذا الاهتمام باللغة الانكليزية ، كان هذا والزمان مواتٍ والاساتذة انكليز ، والطلبة جادّون ، فماذا يقول الدكتور الجمالي اليوم ؟

ان التعليم باللغة العربية اليوم في جميع المراحل الدراسية ييسر الفهم ، ويسرّع في استيعاب المادة العلمية ، ويعزز مكانة لغة الضاد ، ويوسع قدراتها للتعبير عن المستجدات ، ويدفع العاملين في حقولها الى المثابرة والعمل الجاد في سبيل الحفاظ عليها وتنميتها ، ورفدها بكل جديد ، فضلا عن ردم الهوة بين التعليم العام والتعليم الجامعي التي توقع الطلبة في مشكلة حين الانتقال من اللغة الام الى اللغة الاجنبية عند التحاقهم بالجامعات التي لم تعرب التعليم 0

ولا يخدم التعريب العربي وحده ، وانما يعزز العربية في الخارج ، ويدفع الاجانب الى تعلمها للرجوع الى ما ينشر ويذاع بها ، كما يتعلم العربي اللغة الاجنبية للرجوع الى ما يريد معرفته 0 وقد يجعل اهتمام العرب بلغتهم دافعا لاهتمام المراكز الاستشراقية ومعاهد تعليم العربية اكثر من عنايتها في الوقت الحاضر ، لتتابع ما يحدث في الوطن العربي من تقدم في اللغة واستيعابها المستجدات 0

خامسا" : جعل النجاح في اللغة العربية شرطامن شروط التعيين في مؤسسات الدولة والقبول في الدراسات العليا أسوة بأمتحان الكفاءة باللغة الاجنبية 0 والالتزام بذلك في تعيين التدريسيين في الجامعات ، وهو ما يجري الان في العراق اذ لا يعيّن التدريسي الا بعد الامتحان باللغة العربية مهما كان تخصصه العلمي ، ويسري هذا على الموظفين الذين تؤهلهم شهاداتهم العليا لتغيير عناوين وظائفهم والعمل في الجامعات ليأخذوا مكانتهم العلمية ، وينتفعوا بما في ذلك من امتيازات 0

سادسا : الاهتمام بلغة الاعلام المقروء والمسموع والمرئي ، لانه الصق بحياة الناس من غيره ، ولا سيما المرئي الذي امتلأت به الأجواء ، واصبح ضروريا" كالماء والهواء والغذاء 0

(6)

هذا ما ينبغي ان يكون داخل الوطن العربي لتأخذ لغة الضاد دورها في النطاق القليمي العربي ، ولتبقى حقيقة لا ريب فيها ، يؤمن بها العربي ، ويحافظ عليها ، ويسعى الى تنميتها وازدهارها 0 اما في خارج الوطن العلابي فمما يعززها :

اولا": انشاء معاهد لتدريس اللغة العربية ، وفتح المدارس ابناء العرب المقيمين في ديار الغربة ، ولمن يريد التزود من الثقافة العربية ، وهذا ما تقوم به الدول الاجنبية ، اذ لمعظمها معاهد ومراكز ثقلفية في الخارج ، مهمتها نشر لغتها وثقافتها الى جانب تحقيق اهداف تتصل بسياستها الخارجية 0 وقد كان للمعاهد الثقافية اثر في جذب الملتحقين بها الى الدول التي انشأتها ، والسفر اليها ، والتشبث بما لديها ، واكمال التحصيل العلمي فيها ، وبذلك تكون لها مراكز جذب في مختلف البلدان 0

ثانيا" : نشر الاسلام خارج الوطن العربي لصلته باللغة العربية ، لان القران الكريم بلسان عربي مبين 0 ولولا الاسلام ما عرفت العربية في مشارق الارض ومغاربها ، ولا اهتمت بها المدارس والجامعات في كل بلد ترتفع في مآذنه عبارة ((لا اله الا الله محمد رسول الله)) 0 ولعل ما تفعله دول افريقية ودول شرقي آسيا خير دليل على الاهتمام بالعربية من خلال الاسلام وقراءة القران الكريم 0

ثالثا" : تعيين مستشارين ثقافيين في السفارات العربية من ذوي الاختصاص باللغة العربية ،او المتمين بها والحريصين عليها ليتابعوا نشاط المعاهد اللغوية والمراكز الثقافية التابعة لدولهم ، وان تكون لهم صلاحيات تؤهلهم للقيام بواجبهم خير قيام 0

رابعا" : القاء المسؤولين العرب كلماتهم في هيئة الامم والمحافل الدولية باللغة العربية اسوة بما يفعله المسؤولون في دول العالم اعتزازا" بلغتهم وتأكيدا لهويتهم ، واحتراما لوطنهم 0

خامسا" : تقديم البحوث والقاؤها بالعربية في المؤتمرات ، اذ ليس من العزة الوطـنية ان يقـدم العربي بحثه بلغة اجنبية ، وهناك من وسائل الترجمة ما يعين الحضور على متابعة البحث ومناقشته 0

سادسا" : وضع المواقع بالعربية في شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) لما في ذلك من اهمية في جعل الاجنبي يتعلم لغة القران الكريم ليتابع ما في الموقع من معلومات تعينه فيما يحتاج اليه الـى جانب المواقع باللغات الاجنبية 0

سابعا" : الاهتمام بالفضائيات التي تعد ـ اليوم ـ من اوسع وسائل الاتصال انتشارا ، وتستطيـع الدول ان توجه فضائياتها الرسمية وغير الرسمية وجهة تخدم العربية حين تقدم ما تعرضه بلغـــة واضحة سليمة 0

(7)

هذه خطوات تعزز اللغة العربية وتقربها الى العالم ، ولن يتحقق ذلك الا بأنشاء هيـــئات او مجالس عليا ليستطيع العرب الحفاظ على سلامة لغتهم ونموها وازدهارها ، وتكون لغة الضاد احدى اللغات العالمية 0

هذا على المستوى الوطني ، اما على المستـوى العالمي فمن الضروري والمهم ان تقـــوم ((منظمة دولية للغة العربية)) تضع الخطط الكفيلة بالحفاظ على لغة القران الكريم ونشرها فـــي العالم ، وان يكون للمنظمة سلطان لتحقق اهدافها ، وان تعمل بجد واخلاص كما تعمل الفرنكفونية في الساحة الدولية 0 وهذه دعوة اطلقتها في شهر نيسان من عام 2002 م في الكلمة التي القيتها نـــيابة عن المشاركين في افتتاح (مؤتمر اللغة العربية امام تحديات العولمة)) الذي عقده في بيـــــروت ((معهد الدعوة الجامعي للدراسات الاسلامية) و

ما اقترحته في بحثي ((اللغة العربية وتحديات العولمة)) الذي قدمته في ندوة ((قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة)) التي عقدت في مجمع اللغة العربية الاردني في ايلول سنة 2002م ، بدعوة من اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية ، وما ذكرته في ورقتي ((التشريع اللغوي)) التي قدمتها في المؤتمر الرابع لمجمع اللغة العربية بدمشق في تشرين الثاني سنة 2005م 0

وكان معهد الدعوة الجامعي للدراسات الاسلامية قد اقرّ في مؤتمره الذي عقده في بيروت في نيسـان 2002 م ، تأسيس ((مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها)) ووضع مشروع النظام الاساسي الذي شاركت في وضعه 0 وقد نصت المادة الاولى على :

((يؤسس مجلس علمي بأسم المجلس العالمي لرعاية اللغة العربية وتنمـــيتها ، لـــه شخصية اعتبارية))

ونصت الفقرة الخامسة من المادة الرابعة على :

((العمل على نشر اللغة العربية خارج الوطن العربي ، والاهتمام بلغة ابناء الجالـــيات العربية حفاظا على الهوية العربية الاسلامية))

واطلع على النظام العماد اميل لحود ـ رئيس الجمهورية اللبنانية ـ وقال في رسالته التي وجهها الى رئيس المعهد ـ الدكتور عبد الناصر جبري ـ في العشرين من تشرين الثاني سنة 2002م :

((لقد اطلعت بامعان على مشروع نظام المجلس التأسيسي لرعاية اللغة العربيـــــة وتنميتـــها ، وقد رغبتم من خلال ما اطلعنا عليه ان تحصلوا على اشارات بهذا الخصوص 0 اننـــا نهنئـــكم على جهودكم في اظهار لغتنا العربية لا لغة الشعر والمنطق فحسب ، بل لغـــة العلم والتطـــور والحضارة ، وما رغبتم في انشاء مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها الا تلبية لهاجس التفوق الذي تبثه فينا جماليات قوالب هذه اللغة وعبقريتها)) 0

ويعزز هذه الدعوة توصية الندوة التربوية التي عقدت في باريس سنة 2004م وشـــــاركت فيها المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وجمعية الدعوة الاسلامية العالمية ، وجاء فيها :

((انشاء هيئة عالمية للغة العربية تكون اطارا جامعا للدول والمجتمعات الناطقة باللغة العربية ، وجهازا متخصصا يخدم لغة الضاد ، ويعمل على تيسير تعليمها ، والسهر على تطويرها ، وتوسيع انتشارها)) 0

وقد تتبنى جامعة الدول العربية هذا المشروع ليكون عربيا لما للجامعة من اثر في الســـاحة الدولية ، وما لاجهزتها من حضور في مختلف بلدان العالم ، او تتبناه منظمة المؤتمر الاسلامـــــي ليكون المشروع عربيا اسلاميا ، لما لها من سلطان في كثير من الدول الاسلامية ، فأن عجزت هاتن المنظمتان ، او لم تَعُدَّا ذلك من عملهما ـ على الرغم من انهما أسستا لخدمة العرب والمسلمين ـ فقد تقوم بذلك دولة عربية لها من القدرات ما يؤهلها لانشاء ((منظمة دولية للغة العربية)) علـى غرار الفرنكفونية التي تقوم بها دولة واحدة ـ هي فرنسة ـ التي اولت لغتها اهتماما عظيما ، وبشرت بـــها في العالم بالوسائل المختلفة ، مثل فتح معاهد تدريسية ، ومراكز ثقافية ، وعقد مؤتمرات ، ومنـــــح جوائز لمن يكتب بها من غير الفرنسيين 0 وقد حققت كثيرا مما سعت اليه في السنوات الاخـــــيرة بفضل الجهود التي بذلت ، واسناد العامة الى غير الفرنسيين مثل بطرس غالي المصري ، وعبـــدو ضيوف ـ السنغالي ـ لتضفي عليها عالمية ، وتكسب الاجانب من شتى بقاع العالم 0

(8)

وبعد :

هل تصبح العربية لغة عالمية ؟

العربية اليوم من حيث انتشارها اللغة الثالثة أي بعد الانكليزية والفرنسية ، وهي احدى اللغـــــات المعترف بها في هيئة الامم ، وهي قادرة على التعبير عن حاجات الناطقين بها علميا وحضـــــاريا لنموها في العصر الحديث ، وكثرة ما تولد من مصطلحات علمية ، والفاظ حضارية ، ومـــا ذلك الا لتفاعلها مع معطيات الحياة الجديدة 0

ان اللغة العربية في هذا العصر قادرة على تلبية مطالب المجتمع ومواكبة العلوم الحـــــديثة ، وسواء أكانت عالمية او لم تكن ، فهي هوية العرب ، كما ان اللغات الاخرى هوية اقوامـــــــــها0 ومسألـــة اللغة العالمية حلم راود بعضهم منذ القرن السابع عشر ، وظهرت عدة محاولات لاصطناع لـــــغة عالمية ، ومن اشهر تلك المحاولات (الاسبرانتو) التي اعـــــتمدت على اربع لغات اوربية هـــي : اللاتينية ، والانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية0 ولم تسد هذه اللغة التي اصطنعت لاغراض قد تكون غير لغوية ، لتمسك الدول بلغاتها القومية ، على الرغم مـــن الاتحادات كالاتحاد السوفيتي ، والاتحاد الاوربي ، وكانت جمهوريات الاتحاد السوفيتي قـــد عادت الى لغاتها القومية بعد انـــهيار التحاد ، وظلت دول الاتحاد الاوربي محتفظة بلغاتها التي تحدد هويتها القومية والوطنية 0

ان قيام لغة تسود العالم كله حلم بعيد المنال ، ولن يتحقق الا اذا اصبح العالم دولة واحـــدة ، ـــ وهذا من المحال ـ لاختلاف الاجناس والاديان والمصالح ، ولن تدوم تلك اللغة ـ ان تحققـــــت الدولـــة الواحدة ـ لانها سرعان ما تنتهي بعد ان تنهار الدولة الموحدة ويعود كل قوم الى حـــــدود ارضهـــــم ولغتهم 0

ان الدعوة الى لغة عالمية تقف وراءها الان قوى معروفة ، وقد جعلت من العولمة سبـيـــلا للوصول الى تحقيق هذا الهدف الى جانب الاهداف السياسية والاقتصادية ، واللغة العربية لغة العرب والمسلمين لا يعنيها ان تكون عالمية او لا تكون ، ما دامت واسعة الانتشار ، وقادرة على العبير عن المستجدات ، وتلقي العلوم المستحدثة ، على الرغم من الاصوات المنكرة التي يطلقها الخارجـــون

على الامة العربية ، والمنكرون تفوق المتلقين علومهم بها ، وهم يعلمون ان جميع الدول الحـــــرة تدرس العلوم بلغاتها ، وليس فيها من يدعو الى هجر لغته الام واتخاذ لغة اجنبية ، كما في الوطـــن العربي الذي ابتلى بخوارجه قبل ان يبتلى بالاحتلال 0